في حضرة الشعر والشهادة
تلقي الزبيري في كتابات البردوني والمقالح النقدية

أ . د. علي حـــــداد
أستاذ الأدب الحديث ونقده - كلية اللغات - جامعة صنعاء

*** في البدء:**

(1)

تعددت الدراسات التي كتبت عن الزبيري شاعراً وإنساناً وتزاحمت على نحو لافت للانتباه . ونحن هنا لا نتكلم عن المقالات والأبحاث التي تناولت ذلك الوجود البهي للزبيري بل نشير إلى الكتب والمؤلفات التي استوقفتها جوانب بعينها من شخصيته وفنه الأدبي والكتابي متنوع الأوجه والاهتمامات .

إن تلك الدراسات من الكثرة والامتداد على زمانية تتواتر منذ العام 1965م الذي تجلل أحد أيامه برحيل الزبيري شهيداً وحتى وقتنا الراهن ، وهي في معظم ما قاربته عن الزبيري وإبداعه لم تكن تكرر بعضها أو تستنسخ كشوفاتها بل كانت تجد ما يمنحها فرصة أن تتمثل منهجياتها وتؤكد خصوصياتها في التناول ، وبما يفضي بها إلى إضافات قرآئية مهمة. وهكذا اتسعت مكتبة الزبيري حتى ليمكن القول إن ما كتب عنه - مقدار وتنوعاً - من الكثرة بما لا يكاد يجاريه فيه شاعر يمني آخر[1]. وتلك ميزة خاصة بالدرس الأدبي والنقدي - عربياً ويمنياً - الذاهب إلى مقاربة تجربة الزبيري الإنسانية والأدبية ، لما استتب لها أن تكون عليه من أفق إنساني صنع تاريخيته المزدحمة بالموقف والمقاصد ذات النبل الخاص، والتبتل على مساحة من اليقين الذي لم تحد عنه .

فالزبيري رمز وطني وإنساني بالذي اختطته له أقداره ، وبالمضاف من المواقف التي تخيرها ، ولم يشهد عليه أحد أنه غادرها في موقف أو زمانية معينة .

وهو شخصية مبدعة لا تناقض ما ترسمته لوجودها الإنساني ولا تكيف نفسها بخصوصيات ذاتية بعيدة عنه ، فقد تماسك الجانبان ، ليبرزا مكانة الزبيري ودوره في المسيرة المحتشدة بالوقائع والأحداث والمواقف التي شغلت أفاق السياسة والثقافة والاجتماع في تلك المرحلة المشتجرة بكل شيء من تاريخ اليمن ، ليكون وجود الزبيري فيها (مفصلياً) ومخبراً عن انتقالاتها الدرامية الحادة، ومن هنا أصبح الزبيري جديراً بأن يطلق عليه وصف (الشاعر التاريخي) الذي حدد الدكتور عبد العزيز المقالح السمات التي تميزه عن سواه بكونه الشاعر الذي : " يأتي في منعطف تأريخي حاسم ، ويكون همزة الوصل العميقة بين العصر والتراث ، بين الحاضر والمستقبل . وهذه التاريخية تلقي على كاهله العظيم مسؤوليات لايحملها غيره، وتضع في رأسه من

الهموم ما لاتضعه في رأس أي شاعر آخر". [2]

وعبر هذا الوجود الخصيب بدا الزبيري أشبه ما يكون بقطعة (البلور) متعددة الأوجه والتكشفات، والتوصيفات التي يندر أن تكون قد اجتمعت لسواه، فهو الوطني الملتزم، والثائر الذي لا يتوانى عن إعلان الموقف وبجرأة كبيرة، وهو: الفقيه - الرحالة - السياسي - الكاتب - الخطيب - القاص - الباحث - الشاعر، وقبل ذلك وبعده - بل وفوقه كقيمة حضور لا تذبل أبداً - الشهيد.

إن هذه الدلالات المترسخة عن شخصية الزبيري هي التي أمدت أفق الكتابة عنه بأريحية لا حد لها، ليتناول وجوده وتجاربه دارسون ودراسات في تواتر لا يكاد ينقطع مدده.

(2)

تسعى قراءتنا هذه لتتأمل - من بين ذلك الحشد المتسع للدراسات التي شغلت بالزبيري ومنجزه الإنساني والإبداعي - دراستين مهمتين هما: (الزبيري ضمير اليمن الثقافي والوطني) للدكتور الشاعر عبد العزيز المقالح، و(من أول قصيدة إلى آخر طلقة) للشاعر (عبدالله البردوني) [3]. وهاتان الدراستان تجدهما جديرتين باستيقاف مساحة التلقي، لمقاربتهما واستنطاق ما شغلتا به من أفكار ومجادلات في الرؤية والاستنتاج خاصين بكاتبيهما.

إن تخيرنا لهاتين القراءتين النقديتين ينطلق من جملة مبررات تشخص عندنا في الآتي:

- إن كلاً من البردوني والمقالح شاعر يمني وعربي مهم في مكانته الشعرية ودوره في مسار الفاعلية الثقافية والإبداعية وحركيتها المتصاعدة عربياً وعلى صعيد منجز الشعرية اليمنية المتميز عند كل منهما.
- لكل منهما جهده الكتابي الناقد المثير في كشوفاته والمتسع في اهتماماته والدال على المتحقق المعرفي الناضج لديهما، وعياً وتمثلاً للعملية النقدية ومحمولاتها فكرياً وجمالياً.
- عايش كلاهما تجربة الزبيري الإنسانية والأدبية على المستوى الشخصي واقترب منها وتأملها عياناً، وصنع مساحة من التماس اليومي والمباشر معها - وإن بحدود خاصة بكل منهما - في وقائع تاريخية ومواقف وذكريات وانشغالات متقاربة، وبما يؤسس لتأمل متفرد لكل منهما. ولا شك في أن كلاً منهما كان على اطلاع جاد وتأمل حصيف لمجمل الجهد الكتابي والنقدي الذي أنجزه سواهما عن الزبيري، وبما أوصلهما إلى القناعة بضرورة أن يقدم كل منهما رؤيته، كإضافة نوعية لهذا الذي كتب عن الزبيري كله، من خلال تلمسهما لصلتهما الوثيقة بالزبيري، لا من خلال حالة الاقتراب المكاني والوطني منه بل عبر تلمس أدق تكشفات تجربته ومكوناتها ومكنوناتها.
- لم تكن هاتان الدراستان هما الجهد الأول الذي قدمه كل منهما عن الزبيري فقد شهدت جهودهما النقدية مقاربات متواترة لتجربته في مؤلفات عديدة سبقت كتابيهما هذين، وصنعت أفقاً من المجادلة القرائية والحوار المعرفي بينهما، في رؤية بدت خاصة بكل منهما، تمّ لها أن تعلن عن محتواها ومنطلقاتها جلية في

كتابيهما الأخيرين.

ـ لا يختلف اثنان على القول بأن لكل من المقالح والبردوني أفق من التمايز في الرؤية المنهجية والحساسية المعرفية والتمثل الفلسفي الذي تبناه كل منهما، وهما يكابدان الهم الإبداعي والثقافي ويتواصلان

ـ بحسب تخيّر خاص لكل منهما ـ مع توجهاته وقيمه وكشوفاته ، وهو ما يمنح قراءة كل منهما لتجربة الزبيري نكهتها المعرفية وتمثلاتها الدالة على خصوصية التوجه وأبعاده .

ـ ربما أحالتنا قراءتيهما إلى تدبر جانب من قضية (الشاعر/الناقد) واستنطاق مهيمناتها الفكرية والعملية، ليثار التساؤل عن دوافع (الشاعر) التي تأخذ به لكي يكتب النقد، وهي مسألة أخذت حيزاً متسعاً من الجدل والتبرير المتضاد في كتابات كثير من المتأملين لها [4]. نقول هذا من دون أن يغيب عن بالنا أن تناول الكاتبين للزبيري لا ينبت إلى حالة التواصل النقدي عند الشاعر وحدها بل يتأسس على مجمل المبررات التي سبقت الإشارة إليها.

تقدم لنا المساوقة التاريخية لوجود الزبيري في اهتمامات البردوني والمقالح وتأملاتهما القرائية من المستندات ما يؤكد ترددهما على منجزه الإنساني والأدبي في كثير من كتاباتهما، ومنذ مراحل متقدمة نسبياً فيها . فلقد أطال (البردوني) الوقوف عند الزبيري وفي أكثر من موضع ضمن كتابه الأول (رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه) الصادر في العام 1972م ، وفعل المقالح مثيل ذلك، فجاءت تناولاته المهمة والمعمقة عن الزبيري في كتابه (الشعر المعاصر في اليمن – الأبعاد الموضوعية والفنية)[5] الذي صدر في العام 1974م.

وفي كتاباتهما الفكرية والنقدية اللاحقة فإن حصة الزبيري لم تكن لتغيب عنها، إذ بقيت بارزة ودالة على توصلات قرائية جادة ومهمة قدماها عن هذا الشاعر الكبير[6]، ليتوج ذلك كله لاحقاً بإصدار كل منهما كتابه الخاص بالزبيري وحده، وهما الكتابان اللذان تنشغل قراءتنا بهما.

والحقيقة فإن لكل من هذين الكتابين أهميته ، لا لأنه يتناول الزبيري من خلال وجهة قرائية خاصة بشاعرين مهمين مثل المقالح والبردوني ، ولا لأنه يدرس الزبيري هذه القامة الإنسانية والوطنية المتعاظمة موقفاً ومنجزاً ، بل لذلك كله وفوقه طبيعة الرؤية وخصوصية التوصلات التي أنجزت في كل منهما ، متصل بتلك الوجهة ما تهيأ لنا ـ ونحن نتأمل الكتابين ـ مما نراه حالة من الحوار المعرفي غير المباشر الذي تجاذبه الكاتبان وتجادلا من خلاله مع بعضهما. لقد وجد بعض الدراسين أن كتاب البردوني

(من أول قصيدة إلى آخر طلقة) يمثل: " ذروة الكتابة النقدية عند البردوني ،لأنه اقترب فيه من المنهج الفني، ووصل إلى درجة كبيرة من التذوق والتحليل للنصوص الشعرية... ويمتاز هذا الكتاب ـ أيضاً ـ بشموله لموضوعات شعر الزبيري وخصائصه الفنية ، وتناول حياة الزبيري ونضاله من خلال شعره "[7].

أما كتاب المقالح (الزبيري ضمير اليمن الثقافي والوطني) فعندنا أنه ينال أهميته من كونه قراءة نقدية

لموضوعة الزبيري ذاتها ، ولكن من وجهة نظر مختلفة عن سابقتها ، في منهجيتها وأدواتها ، وفي ما يشغلها وما سعت إلى التواصل إليه، فضلاً عما انبنى عليه من تماسك وعي ـ ومنذ وقت مبكر- انهمك بقراءة الزبيري والانشغال به في الموقف والرؤية ، ليأتي هذا الكتاب تواصلاً أكيداً مع تلك الرؤية ، داعماً إياها بالوثيقة التاريخية وبالاستعادة المتذكرة لتلك المواقف النبيلة التي كان عليها الزبيري.

وما نود تأشيره هنا ـ وقبل أن ندلف لمقاربة هذين الكتابين ـ هو تأكيد أن قراءتنا لن تطيل الوقوف عند تجربة الزبيري بأبعادها كلها، مثلما لن تواصل فحص مآلات التأسيس النقدي ومنجزه عند المقالح والبردوني بل سيشغلها من هذا وذاك ما تستجلي به الكيفيات التي استقرت عليها قراءة كل منهما للزبيري ومناط التلاقي أو التباعد ـ والتضاد وكذلك ـ الذي تجلى من خلاله طرح نقدي مهم يتلمسه كل من يتأمل منجز هذين المبدعين الكبيرين .

هكذا سيذهب نزوعنا القرائي لاستخلاص موجهات القراءة ومحمولها الدال عليها الذي شغلا به وهما يقاربان تجربة الزبيري المفعمة بأكثر من مساحة لجدل وتجاذب لموقف وقناعة بما هي عليه من العمق والتنوع.

كما نود الإشارة إلى أننا ـ ومع إدراكنا أن كتاب المقالح أسبق في صدوره تاريخياً من كتاب البردوني ـ سنبدأ بكتاب الأخير، لأن فيه كثيراً من الأفكار والاستعادات لما كان البردوني قد طرحه في كتاب (رحلة في الشعر اليمني) الذي صدر في أوائل السبعينات، وهو ما تهيأ لنا أن كتاب المقالح يناقشه ويدخل في كثير جدل مع طروحاته ليرد عليها ويرد بعضها.

* القراءتان ... مهيمنات الرؤية وتمثلاتها:

(1)

ابتداء من عنواني الكتابين يحدد الشاعران الوجهة القرائية التي ستهيمن على توجهاتهما لمقاربة تجربة الزبيري ببعديهما الإنساني والإبداعي. لقد اختار كل منهما مساراً لرؤيته وآفاق تشكلها في قناعة أكيدة لكل ما ستنطق به وتعلنه، فجاء عنوان كتاب البردوني ليلخص مسار القراءة التي تذهب إلى محاورة وجود الزبيري ببعديه الإنساني والشعري وما تأطر فيهما من مواقف وتجارب ومقولات شعرية . ومن هنا فقد تبدت في العنوان ملاحقة متتبعة لتفصيلات المشوار الذي تشابكت فيه مواقف الزبيري وموهبته، فتكيف فيهما وجود قدري خاص به ، ابتدأ من (أول قصيدة) أعلن فيها عن نفسه شاعراً، وتلمست ختامها عند (آخر طلقة) أوقفت المسيرة وغيبت جسد هذا الإنسان المبدع .

لقد جاء العنوان عند البردوني جملة رامزة عن حضور الزبيري الإبداعي الذي عده الولادة الحقيقية له والارتهان الوجودي ذي النزوع المثالي (الشاعري) الذي تبدت فيه مسارات حياته اللاحقة حتى انطفائها حين اشتعل جمر الطلقة فيها. وربما كان في ذلك بعد تأويلي آخر، أراد به البردوني أن يوجز مسيرة حياة الزبيري من الولادة الشعرية وحتى آخر موقف تمثله الزبيري وتبناه وأصر عليه ، ليكون إطلاقة صوته

وموقفه الأخير.

أما المقالح فقد جعل عنوان كتابه (الزبيري ضمير اليمن الثقافي والوطني) محدداً بذلك البعد الرؤيوي الذي ستنشغل قراءته به وهي تتداول تكيفها الذي لا تحيد عنه في تأمل الزبيري لا بوصفه ذاتاً وفاعلية إبداعية لهما توصيفهما الفرداني الدال عليهما والمدلان من خلاله على وجودهما بل ليشرع ذلك الوجود إلى حيث يصبح أفقاً نورانياً لفاعلية وطنية تصبح تلك الذات ـ ذات الزبيري ـ قطبها الذي ينشد كل ما حولها إليه ويستجيب لما يتمثله ويعلنه ، فالزبيري(ضمير) لبلاده ، في بعدين يصنعان هويتها ويحركان قيم الحياة فيها : (الثقافي) و (الوطني) ، وفي كلا البعدين كان الزبيري بؤرة إشراق باذخة التجلي.

ويبدو أن هذا العنوان الذي تخيره المقالح مؤسس على يقين لا حياد عنه عنده ، إذ هو مستوحى من عنوان مقالة كان المقالح نفسه قد كتبها منذ العام 1955م ، حين لم يكن عمره قد تجاوز السادسة عشرة . وقد بقيت فكرة تطويرها والإضافة إليها شاغلة له طيلة الأعوام اللاحقة ، وهو ما استعاد المقالح الحديث عنه في مقدمة كتابه الذي نحن بصدده ، فحين ضاعت ـ يقول المقالح ـ تلك المقالة " لم يبق منها إلا عنوانها الذي انطبع في وجداني ، كما انطبع عليه اسم الزبيري نفسه "[8] وإذا عرض عليه أحد الناشرين أن يعد كتاباً عن الزبيري ، وطلب منه أن يختار له عنواناً مناسباً ـ يضيف المقالح : " لم أجد أفضل من عنوان ذلك المقال الضائع ، لأنه عاش معي أجمل السنوات وصاغته عفوية الشباب "[9].

لقد لخص عنوان كل من الكتابين الرؤية (المهيمنة) التي تبناها صاحبه ، فهي تتبدى عند المقالح في التنزيه المؤكد لشخصية الزبيري واستجلاء وجودها في نصوع قيمي لا يجارى ، كانت عليه في مواقفها وبوحها الأدبي ـ الشعري خاصة. أما عند البردوني فإنها تتأسس على وعي وذائقة خاصين به ، ومؤشرين كثيراً من مقاصده ، وهو يعاين تجربة الزبيري الشعرية ومتحققها الفكري والجمالي كما تبدى له.

وربما أمكننا العودة إلى عنواني الكتابين ـ بإغراء الدلالة الثنائية التي حملها كل منهما ـ فالمقالح يؤطر وجود الزبيري في ثنائية بعداها منشدان إلى الزبيري (الضمير) الناصع لتجلياتهما ، وعلى النحو الآتي الذي يتحاوران فيه :

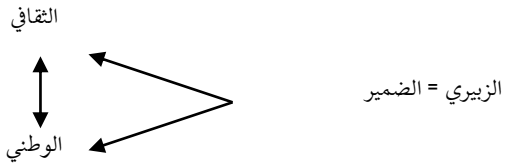

أما عنوان كتاب البردوني فيجسد ثنائية كان طرفاها شيئين متضادين وردا بمسمى مؤنث في كليهما : (القصيدة ـ الطلقة) ، ليؤطر مسار حياة الزبيري مبتدأً وخاتمة ، وهو ما يمكن وضعه في الترسيمة المتحاورة الآتية :

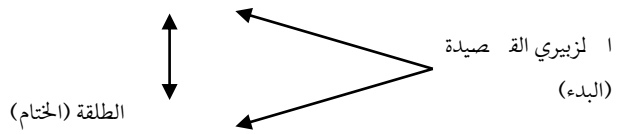

القصيدة (البدء)

هكذا كانت القصيدة ـ بما هي عليه من قيم حياة وجمال وإبداع ـ البداية التي تواصلت متواترة فيما تلاها من القصائد ، لتأتي (الطلقة) بالذي تحمله من تضاد صارخ مع سابقتها ، فتصنع الموت وقتل الجمال . وإذا كانت القصيدة (أولى) بما يعني أن لها ما سيتبعها من مثيلاتها فإن الطلقة أخيرة ، بما يؤشر حصول مثيلات لها ولكنهن قد سبقنها .

وسنلاحظ أن البردوني قد استخدم مفردة (الطلقة) وليست (الرصاصة) وكأنه أراد أن يمنحها بعداً صوتياً ، يضعه بإزاء البعد الصوتي للقصيدة ، مؤشراً تحولها من رصاصة جامدة باردة المعدن إلى إطلاقة اتجهت إلى هدفها وأدت مهمتها.

(2)

حين ندلف إلى محتوى الكتابين في المباحث والفصول ، فسوف تواجهنا جملة من الأبعاد المؤشرة لحدود الرؤية التي قارب كلا الكاتبين من خلالها تجربة الزبيري ، وما تمثله من اشتراطات المهيمنة التي تخيرها ، وما استوعبه من طرائق البحث العلمي وأسبابه .

سنلاحظ أولاً أن المقالح قد استحضر التراتب الشكلي المتبع في المؤلفات الحديثة ، فوضع لكتابه مقدمة فصلت الحديث في دوافع إنجاز هذا الكتاب ، ومساحة الانشغال به ومنذ وقت مبكر عنده. لتأتي بعد ذلك فصول الكتاب متواصلة وبرؤية دلالية متصاعدة . ولم يفت المقالح أن يستهل أولى صفحات كتابه هذا بإهداء ذهب به إلى الزبيري نفسه : " إلى صاحب صلاة الجحيم/ تحية حب.. وصلاة اعتذار"[10]

أما كتاب البردوني فقد خلا من ذلك ، مثلما لم ترد له مقدمة تدلل على طبيعة توجهاته ، كالذي كان عليه سابقه .

عند معاينة الفصول التي حواها الكتابان فسنجدهما يلتقيان في كونهما في الأصل مجموعة من الدراسات والمقالات التي كتبها كل من البردوني والمقالح في مدة زمنية سابقة لجمعها بين صفحات هذين الكتابين .

كتب البردوني في المدة بين عام 1990 – 1992م فصول كتابه هذا ونشرها على حلقات أسبوعية في

الصفحة المخصصة له في صحيفة (26) سبتمبر التي تصدر في صنعاء كل يوم خميس.

وكانت أولى مقالاته هي تلك التي وردت تحت عنوان (الصورة الطويلة في شعر الزبيري)[11] ، ثم توالت المقالات الأخرى تباعاً، لتصبح لاحقاً فصولاً لكتابه، وبالعنوانات التي نشرت فيها عبر الصحيفة ذاتها، لتكون آخر تلك المقالات ما نشرت في 1992/9/17م وحملت عنوان (من أول قصيدة إلى آخر طلقة) التي أصبحت عنواناً للكتاب عند طبعه بعد سنة من نشر مقالاته في الصحيفة.

تضمن كتاب البردوني سبعة وعشرين فصلاً تداخلت في تناولها لجوانب مختلفة في آفاق حياة الزبيري وثقافته وشعره ، من دون أن يضع البردوني في حسبانه إمكانية تبويبها بحسب طبيعة المحتوى الذي تناولته ، ليضع فصول الدراسة الموضوعية وهي تناول جوانب من فكر الزبيري وثقافته والتأسيس المعرفي والسياسي في حيز، يلحق بها تلك الفصول العديدة التي تناولت الجوانب الفنية من شاعريته . ولكن ذلك لم يحصل فجاءت الفصول عفو الخاطر ومن دون ترتيب منهجي ، وفي تداخل موضاعتي ، ربما أدى إلى تكرار بعض المعلومات والأفكار في أكثر من فصل فيها.

لقد استوقفت هذه الظاهرة التي تكاد تعم مجمل كتب البردوني أحد الباحثين فعزاها إلى جملة أسباب ، أولها عنده أن الكتاب في أصله مجموعة مقالات ودراسات نشرت في أكثر من صحيفة ومجلة ومن دون أن يصاحب نشرها اهتمام بتنسيق موضوعاتها، وعلى هذا ـ وطبقاً لرأي الباحث ـ " فالكتابة الصحفية ، والتأثر بثقافة النقاد القدامى ، وتقليده لبعض النقاد في عصر النهضة مثل : طه حسين، والعقاد ، وسلامة موسى ، ومارون عبود وغيرهم ، إلى جانب حرمان البردوني من نعمة البصر ومن الدراسة الأكاديمية في الجامعات ، كل هذه الأسباب كانت وراء القصور الذي نجده في تنسيق مادته العلمية "[12].

لقد أنجز البردوني في كتابه هذا جهداً قرائياً بدت عليه سمة الاتساع وتزاحم المعلومات والأفكار التي لم تنشغل بالزبيري وأدبه بل ذهبت إلى أبعد من ذلك في استفاضات قرائية عن عصور الأدب وتجاربه المختلفة ، مثلما انشغلت بتأطير كثير من المصطلحات والمفاهيم والمواقف واستنطاق الرؤى والأمثلة الدالة عليها[13].

ويبدو أن حالة الاسترسال والاستفاضة سمة أسلوبية قارة في كتابات البردوني[14] لا يكاد يتجاوزها ، ولعلها نتيجة لعوامل ذاتية وثقافية خاصة أنضجت لديه مقدرة عالية على الاستذكار وحشد المعلومات وتوظيفها في السياق الذي يجده مناسباً لها، وهو ما انعكس على فصول هذا الكتاب ، فقد كان البردوني ـ وعلى طريق تناوله لأية موضوع عند الزبيري ـ يستهل حديثه تنظيرية مطولة واستطرادات متلاحقة ، حتى لتبدو هي المتن الذي ينهيه بإشارة موجزة إلى الزبيري.[15]

وفي ذلك الذي يكتبه البردوني كله فإن غياباً تاماً للهوامش يبدو سمة كتابية أخرى بارزة عنده ، " فلا نجد في كتبه ومقالاته هامشاً واحداً ، مع أن البردوني كان يكثر من الهوامش في دواوينه الشعرية "[15]. ويبدو أن هذه المسألة لم تكن غائبة عن رؤية البردوني ، فقد أثار كثير من التساؤلات عنها في واحد من كتبه

السابقة[16].

لقد بدا لنا ونحن نتأمل ما أسس البردوني عليه فصول كتابه هذا ، وبالصيغ التي جاءت عليها أن حديثه لم يكن منشغلاً تماماً بإبراز موضوعته المتعلقة بالزبيري وأدبه، بقدر ما يتعاورها من المسعى في تأكيد الذات - ذات البردوني - ومقدرتها في الحفظ والاستعادة والتذكر. وربما لن نكون مجانبين الصواب إذا ما عددنا تلك نزعة خالصة لتأكيد الذات ، بدت عالية التشخص في معظم توجهات البردوني الكتابية.

مع أن كتاب المقالح في أصله - وكما هو الأمر مع كتاب البردوني - مجموعة من المقالات والدراسات التي كتبت في أوقات متباعدة لغايات ثقافية وعلمية مختلفة[17]، فإن مؤلفه كان يستحضر فيه هويته الأكاديمية وتأسيسه المنهجي، فقد نسقه بوعي تأليفي جاد ورتب فصوله على أساس ما تنهض به وتعالجه من القضايا والانشغالات.

لقد وضع له مقدمة مهمة في توجيه القراءة وتبرير دوافعها ، لحقت بها فصول الكتاب الثلاثة التي رتبها على وفق قناعات فكرية ومضمونية معلنة فيها ، وأضاف إليها أفكاراً وقراءات تشخصت - وفي ختام كل فصل منها - بهوامش وإحالات إلى ما استعان به من المصادر الأخرى، مقرونة باسم المؤلف، ومسمى الكتاب ورقم صفحته وبدقة متناهية.

وإذا كانت انشغالات المقالح في كتابه هذا تذهب إلى الوجهة ذاتها التي استوقفت البردوني ، من حيث تشعب الرؤية بين ما هو موضوعي وآخر فني تشكلت من خلالها خصوصية التجربة الشعرية عند الزبيري، فإن التراتب في تقديم الرؤية وسمة الإيجاز والتقنين الذي ترد فيه كانت خصوصية أسلوبية معبرة عن حضورها في صفحاته.

لقد جاء الفصل الأول من الكتاب استذكاراً لجوانب التأسيس الإنساني والمعرفي لدى الزبيري ، منذ بروزه شخصية اعتبارية مهمة في حضورها ودورها السياسي والثقافي ،ليدلف مؤشراً القضايا الفكرية التي تأسست عليها تجربة الزبيري الشعرية ومساحة التجلي (الموضوعاتي) الذي انهمكت فيها ، سواء وهو يكتب قصيدة المديح ، أو حين يتأمل الظواهر السياسية والاجتماعية في محيطه الوطني ويحدد موقفه منها.

لتأتي بعد ذلك وفي الفصول الأول والثاني مجموعة من التداولات القرائية لجوانب من تجربة الزبيري وفي أبعادها الفنية . وكما كانت ذات البردوني حاضرة لتعبر عن مقاصدها المعرفية وذائقتها في التخير والاستعادة فإن ذات المقالح كانت كذلك ولكن ليس بالوجهة نفسها بل لتؤكد انشغالها الدائب بالزبيري إنساناً وشاعراً، وترصيع كثير من الصفحات بفيض الذاكرة ، وهي تستعيد ما عايشه المقالح من أحاسيس وقيم حين أتيح له أن يكون قريباً من الزبيري في وقائع بعينها[18] . ومن هنا فقد جاء الفصل الثالث (الأخير) في الكتاب ليتضمن عنوانات من مثل : أحاديث وذكريات ، رحلة في بيت من شعر الزبيري ، أحزان الزبيري في وثيقة تاريخية بخط يده.[19]

* القضايا ... جدل القراءة وتقاطعاتها:

تعددت القضايا التي استوقفت كلاً من المقالح والبردوني وهما يتأملان تجربة الزبيري ببعديها الإنساني والإبداعي، ليتخذ كل منهما مساحة من الرؤية خاصة به ، ومؤسسة على قيم المهيمنة التي أنطلق منها أساساً في قراءته ، وهو ما وضع بين أيدي تلقينا مساحتين قرائيتين لكل منها سماتها التي ربما بدت ـ وإن على نحو غير مباشر ـ ذات طابع جدلي تواجه به القراءة الأخرى، وتدخل في حالة من الحجاج معها.

(1)

كان البردوني قد أشار في كتابه المبكر (رحلة في الشعر اليمني) إلى حالة التماهي والانشداد بين السياسي (الوطني) والشاعري في شخصية الزبيري، فعنده : " أنه كرس شعره وحسه للوطنية، فكان الوطن ذاته وموضوعه، ولعل هذا سر خطورة شعره "[20].

وقد عاد البردوني في كتابه الأخير ـ موضوع قراءتنا ـ ليناقش الجانب السياسي في شخصية الزبيري باستفاضة هذه المرة ، وبقناعات ربما بدت مختلفة يعلنها من خلال إثارته لسؤالين اثنين، و من ثم إجابته عنهما ، فكانت فحوى السؤال الأول: ما حدود المقدرة السياسية التي تمتع بها الزبيري، وهل كان قادراً على إدراك ألاعيب السياسة وخفاياها ، ليوصف بأنه سياسي ناجح حقاً؟.

أما السؤال الآخر فكان عن مقدار تحكم السياسة وتوجيهها لشاعريته ، والكيفيات التي أعلنت عن ذلك فيها.

وفي مرد إجابته عن السؤال الأول قال البردوني: " أصبحت الوقائع المتواترة مهيمنة على الزبيري ، نقوّله ما تريد هي ، لا ما يصبو إليه من قمم الشعر، فكان صوت الوقائع أطغى على صوت الشعر"[21].

ومن ذات المنظارالراصد لفعل السياسة في شعر الزبيري ، لاحظ البردوني ما انتاب قصائده السياسية ـ ولا سيما في مرحلة أواخر الخمسينات ـ من تطويل مبالغ فنية ، وكان هذا التطويل على ما رآه البردوني: " ضئيل النصيب من الإجادة بل من الشعرية ، لأن توغله في السياسة المباشرة حملّه محاولة الإفهام والإقناع "[22].

وحين ذهب البردوني للإجابة عن سؤاله الآخر، رأى أن مثالية الزبيري تجعله لا يصلح للسياسة ، لأنه يجده مزودا بقيم : " النضال الصادق والبراءة الفجرية والنقاوة المثقفة بأنواع المعارف ، إلا معارف السياسة "[23] ، يأتي ذلك من دون أن يغيب عن رؤية البردوني أن الزبيري كان: " حزبياً جيداً، ومن كل الوجوه ، وعلى كل المقاييس "[24].

يرى المقالح أن البعد السياسي في شخصية الزبيري غير منبت عن سواه من جوانب تكوينه السلوكي والروحي: " فالزبيري السياسي هو الزبيري الوطني، الشاعر المتصوف ، الزاهد بالحياة ومناصبها... وعلى الرغم من أنه كان الناطق الأول باسم القضية الوطنية ، والرجل الذي تهتز لكلماته جبال اليمن فقد كان يرتضي الأدوار الثانوية ، ويجعل شؤون المال والرئاسة والإدارة من اختصاص غيره"[25].

ومن خلال هذه الرؤية يدلف المقالح لدحض المقولة التي رددها البعض ـ ومنهم البردوني كما مر ذكره ـ من

أولئك الذين ذهبوا إلى القول بأن مهارة الزبيري إنما تقتصر على شاعريته وحدها ، في حين بقي الجانب السياسي في شخصيته مآلاً للفشل ، ليؤكد المقالح أن الزبيري : " كان سياسياً شديد الذكاء ، بيد أنه في سياسته لا يعرف الكيد ، ولا يجيد الالتواء ، وكان يعيش - في كل الظروف - بوجه واحد ولسان واحد... وبعبارة مختصرة كان سياسياً وطنياً ولم يكن سياسياً مصلحياً "[26].

ويقدم المقالح جملة من الحيثيات التي تدعم قناعته بكون الزبيري سياسياً لماحاً شديد الذكاء ، يبدؤها من تفحصه المنطلقات النظرية التي أبداها الزبيري في كثير من كتاباته السياسية ، مشيراً إلى ما حمله وعيه على أن يعلنه من موقف ضد نظام الإمامة في كتابه (الخدعة الكبرى) ومنذ وقت مبكر، حيث يظهر الزبيري : " كاتباً سياسياً من الطراز الفريد. فلقد استطاع في هذا الكتاب أن يظهر إلى أي مدى كان النظام الإمامي يخدع شعبه . وبعد أن يئس... نرى كذلك كيف في منافقة السياسة الدولية والعربية "[27].

ويدعم المقالح رؤيته بموقف آخر كان عليه الزبيري ، وفي مرحلة مختلفة ، هي مرحلة ما بعد نجاح ثورة 26 سبتمبر 1962م ، حيث أبدى جرأة كبيرة ووعياً متقدماً يدرك احتياجات الواقع السياسي الجديد ومستلزماته ، وذلك باتخاذ المواقف العملية التي تؤكد عمق تمثله لقناعاته ، ولعل أبرز هذه المواقف وأكثرها جلاء موقفه بعد الثورة : " حينما نبذ الكراسي والمناصب ، وخرج إلى الشعب يواجه الرجعية الخائنة بصدره المفتوح وقلبه الطيب" [28].

وحين يتفحص المقالح شعر الزبيري من منطوق تلك الرؤية السياسية فإنه يراه منسجماً تماماً مع القيم الراسخة في ذات الزبيري ووعيه ومواقفه ، ومن خلال ذلك - وطبقاً لرأي المقالح - فإن " شعر الزبيري كله لم يكن إلا قصيدة سياسية واحدة، وكذلك حياته نفسها لم تكن سوى قصيدة سياسية تراجيدية واحدة... وليس بين شعراء اليمن، ولا بين شعراء العربية المعاصرين - على كثرتهم - شاعر تجسدت في حياته قضية وطنه كما تجسدت قضية اليمن في حياة شاعرها الكبير" [29].

(2)

أعلن البردوني ومنذ وقت مبكر من كتاباته رأيه بخلو شعر الزبيري من الإشارة إلى المكان اليمني وتوظيف خصوصياته فيه ، إذ لم يؤثث نصوصه بأية إشارة دالة على ذلك من حيث المسميات والشخصيات والقيم الاجتماعية ذات النكهة اليمنية : " ولو تلمسنا في كل قصائد الزبيري صورة اليمن أو عاداتها أو مأساتها لما وجدناها "[30]

وقد استعاد الرؤية ذاتها في كتابه اللاحق (رحلة في الشعر اليمني) ، حيث كتب : " إن شعر الزبيري تنقصه ملامح اليمن وروائح اليمن ، فلا تكاد نجد في كل شعره ذكر البن وهو رمز اليمن الأخضر، ولا ذكر الجبل أو أثراً من جبال اليمن وآثارها على ما في الإيحاء المكاني من دلالة شعرية وإثارة نضالية "[31]

وفي كتاب البردوني الأخير (من أول قصيدة ...) سنجده وقد استعاد - وبتفصيل أوسع - المسألة ذاتها ، مفرداً

لها فصلاً خاصاً جعل عنوانه (ذهنية المكان) وقدم له بكثير من التأمل والاستطراد عن علاقة الفرد بالمكان ومنذ مراحل نشأته الأولى، لينتقل بعدها إلى الحديث عن الأفق الذي تمثل الزبيري المكان من خلاله، ذاهباً بالمسألة ـ هذه المرة ـ إلى شيء من التبرير عما يقصده من بحثه عن المكان في الشعر عامة ، وشعر الزبيري خاصة ، إذ ليس المطلوب إقحام المسميات المكانية والإلحاف على ذكرها ، وإنما استبصار خصوصياتها وإعلاء شأن البعد الرمزي الذي تؤشره وتدل عليه : " لأن تسمية الأماكن في الشعر بدلالتها تغني تجربة الشعر بواقعية التعبير، وتجمع بين النظرة المثالية والمنظور الواقعي " (32). وطبقاً لقناعة البردوني فإن هذه المسألة تبدو أكثر إلزاماً في حضورها عندما يرتبط الشعر بالحدث ويتواصل مع وقائعه ، لأن : " الشعر الذي يحمل سمات الأحداث لا بد أن يحمل غبار المكان وقبلات شمسه، وروائح رفيفه وأنسامه وعوصفه "(33).

وعنده فإن الغالب على شعر الزبيري هو ذلك التواصل الحميم مع وقائع وطنه وأمته، وتلمسه الواقعة التاريخية الدالة وهو ما مثل له البردوني بعدد من القصائد المشهورة للزبيري ، كتلك التي قالها وهو يخرج من السجن ، أو التي ألقاها عند تأسيس الاتحاد اليمني بعدن في العام 1944م ، أو قصائده التي قالها في الباكستان لمناسبات دينية وسواها ، ففي كل تلك الأمثلة رأى البردوني أن المكان الذي يشير إليه الزبيري :" غير محدد بسمات وإنما هو جزء من العمل "(34). وعلى هذه الرؤية يؤسس البردوني حكمه الأخير على طبيعة شعر الزبيري وهو يتناول المكان ، إذ هو: " معرض جيد بأسماء الأماكن الذهنية وبالإشارة إليها. على أن هذه الأسماء والإشارات غير الخصوصيات المحلية ، لأن سرد الأماكن يكتبها السائح، لكن خصوصيات الأمكنة تتفجر في الشعر عن طريق تغلغله في أماني الشعب ومآسيه وتقلب تصوراته " (35).

كانت مسألة المكان ومحليته في شعر الزبيري قد استوقفت الدكتور عبد العزيز المقالح ، ولكنه لم ينظر إليها من حدها المكاني وحده بل داخل بين البعدين المكاني والزماني اللذين رأى تمثل شاعرية الزبيري لهما وتأسيس كثير من قيمها عليهما ، في تمثل عميق للخصوصية اليمنية عنده . فمع اتساع أفق رؤيته عربياً وإنسانياً فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون شاعراً يمنياً بالدرجة الأولى (36).

وعبر هذه الرؤية ناقش المقالح موضوعه خلو شعر الزبيري من ذكر الاسماء المحلية التي تبنى البردوني المناداة بها ، ليرد عليه ـ ومن دون أن يذكره بالاسم ـ فعند المقالح أن هذا القول: " يثير من علامات التعجب أكثر مما يثير من التساؤل ، لأن الخصائص والروائح المحلية لا تنبع في الشعر أو في النثر من الأسماء ، وإنما تصدر عن الموضوع ، ومن أسلوب التناول نفسه "(37) .

على أن المقالح ومن باب التذكير والمحاجة ، وللرد على الادعاء بأن ذكر الأسماء في الشعر مما يجعل طابعه محلياً، يقدم أكثر من شاهد شعري لدى الزبيري وردت فيه أسماء مدن وشخصيات وإحالات تعبيرية ذات مرجعية محلية يمنية (38). وطبقاً لقناعة المقالح فإن المكان ليس وحده من يصنع البعد التواصلي بين الشاعر ومحيطه ـ عصراً ووقائع ـ بل إن فاعلية لوجود زماني تمثل مشغلاً دالاً على مقدار صلة الشاعر بواقعه ،

وعنده فإن الزبيري : " كان ـ من خلال سلوكه الشخصي ومن خلال أشعاره ـ ابناً مخلصاً لعصره" [39].

إن انتماء الزبيري إلى بيئته وهموم مرحلته سمة تشخص عند المقالح مؤكدة نفسها في أكثر من موقف وإحالة تعبيرية ـ شعرية كانت أو نثرية ـ إذ لم يكن وطنه اليمن ـ في رؤيته له ـ مكاناً وشعباً بل قيمة فكرية وشعورية تعلن عن تكشفاتها في مواقفه وأدبه على تواتر وجوده الإنساني والإبداعي، وذلك ما استعاد المقالح كثيراً من قيمه وهو يلاحق عمق الرؤية الوطنية وجماليات تشكلها في بيت شعري واحد للزبيري ، وضعه المقالح بأزاء ما تردد على أقلام وألسنة شعراء آخرين في الموضوعة ذاتها، ليصل إلى القول أن الزبيري قد حمل وطنه في شغاف القلب، وظل يردد اسمه في حله وترحاله، هاتفاً[40] :

ولو أني حللت ربوع نجم هممت به إلى الوطن الوثوبا

(3)

تبدت في قصائد المديح التي نظمها الزبيري فترة حكم الإمامة مساحة للاختلاف والتقاطع في الرؤية بين البردوني والمقالح ، حيث أبدى كل منهما تصوراته الخاصة عن تلك القصائد ، ساعياً إلى توجيه تقولاتها من خلال استعادته منطوق المهيمنة الأساس التي تمثلها وهو يعاين تجربة الزبيري الشعرية في مظاهر تشكلها المختلفة.

وكما تكرر في أكثر من مرة فإن البردوني كان قد تناول جانباً من رؤيته لقصيدة المديح عن الزبيري في كتابه (رحلة في الشعر اليمني...) حيث انتهى إلى القول بأن الزبيري :" صادق الشعر في أماديحه (للإمام أحمد) عندما مدحه في ولاية عهده "[41] ، ليستعيد الفكرة ذاتها في كتابة اللاحق (قضايا يمنية) الذي قال فيه إن الزبيري كان (أحمدياً) في تلك السنوات [42].

أما في كتابه الذي بين أيدينا فقد خصص أحد فصوله لتناول هذه الظاهرة الشعرية عند الزبيري ، في دأب لتأكيد قناعته التي سبق له إعلانها. محاولاً التفصيل في مسار شؤونها والكيفيات التي بدت فيها.

فلا شك عند البردوني أن الزبيري قد مدح في شعره أكثر من شخصية وفي فترات مختلفة ، سواء في نوع من المجاملات الأخوانية أو من منطلق قناعته الفكرية والسياسية. ولكن معظم تلك القصائد لم تكن لترقى إلى مستوى أماديحه لهما. وعلى ما يراه البردوني فإن الزبيري :" بدأ مسيرته النضالية بالنصح الممزوج بالمدح ، متمثلاً في تلك القصائد التي قدمها للإمام يحيى التي عدها البردوني مديحاً خالصاً وتقليدي السمات: " ينفخ الممدوح بالغرور إلا أن وراءه نية إصلاح " [43] .

وإذا كانت تلك وجهة المديح التي انطلق منها الزبيري لمدائحه في الإمام يحيى فإن الأمر ـ مع الأمير وولي العهد أحمد ـ سيأخذ وجهة ذات طبيعة ذاتية دالة، فعنده أن الزبيري في قصائده لأحمد إنما :" مدح عن اختيار بل عن رغبة جامحة كما تشهد فنية أماديحه وإحساس صوت قلبه فيها "[44] .

وإذ يمثل البردوني لهذه الرؤية بأكثر من شاهد شعري من قصائد الزبيري في تلك المرحلة ، يستوقفه التواتر

اللاحف لمفردة (الهيام) التي : " استوطنت معجم الزبيري آنذاك... وما يشتق منها من أفعال ومصادر وأسماء مصادر ، كـ: هيام وتهيام وهيمان... وكأن تلك المفردات حدثت ذلك الحين لتمكنها في مكانها وفي المبنى الشعري ، حتى لفتت الانتباه لكثرة ترديدها في (الأحمديات) وندرتها فيما قبلها من القصائد " (45)
وسوف يلاحظ البردوني غيابها بعد ذلك عن قاموس الزبيري منذ مغادرته إلى عدن(46).

وما نود قوله هنا هو أن فكرة تعلق الزبيري بالأمير أحمد في حينه لم تكن من عنديات البردوني بل استعادة لما كان الزبيري نفسه قد قاله في هذه المسألة : " كنت فعلاً في سن النوازع الروحية معجباً بشخصيته ، مأخوذاً بها ، وكنا ننتظر أن تكون تجربتنا معه ناجحة . على هذا الأساس قدمت إليه عصارة غالية من شعري ، أنفخ فيه روح الطموح والبطولة ، وأمنحه حماس الثقة ، وأحركه بأحلام الشعر وأشواق المجد بل وأحلم بأنه قد أصبح بطلاً في دنيا فني "(47) .

إذا كانت قراءة البردوني لتجربة قصائد المديح عند الزبيري قد وضعتها في مسارات مرحلية نوعية ، كان لكل مرحلة منها سماتها المعلنة عن خصوصية تلك التجربة عند الشاعر ، فإن تأملات المقالح لهذه الموضوعة الشعرية تذهب الوجهة ذاتها ، لا لتشارك البردوني فهي ما قرره ـ فهي تقف عند قناعة تناقضه تماماً ـ ولكن لترصد البعد المرحلي الذي تحركت من خلاله هذه التجربة ، وما انبنت عليه من تكشفات فكرية ونفسية كابدها الزبيري فيها.

إن من يتأمل ما كتبه الدكتور المقالح في هذا الشأن سيقف على تأكيده الجازم بأن الزبيري لم يمدح لغرض المديح المحض ، أو ليؤكد مقدرته الفنية في هذا الغرض الشعري ، بل هي وسيلة لديه يستنطقها بغايات متعددة يريدها منها : " أنا أزعم ـ يقول المقالح ـ أنه لم يمدح ، وأنه كان تارة يسيس الشعر فيجعله رائداً يستكشف به أغوار الإمام الطاغية " (48) .

ويضيف المقالح سبباً ثانياً لهذا التوجيه يجده متمثلاً في : " أنه ـ أي الزبيري ـ كتب هذه القصائد أو بعضها مستعطفاً وشاكياً من هول ما يلاقيه المناضل في سجون الإمام من بطش وتنكيل " (49) ، وفي ظل غياب آية وسيلة ـ إعلامية أو سواها ـ لكي يعبر الأدباء والمثقفون اليمنيون عما يشغلهم من مهام فكرية وانشغالات وطنية ومساع للإصلاح ، ومن خلال داخل نظام الإمامة نفسه ، فإن تلك الطريقة من التعبير الشعري كانت هي الوسيلة الوحيدة والصوت المتفرد المسموع الذي أتاح للزبيري أن يعرض كثيراً مما يجري في الواقع اليمني.
وهو ما يعده المقالح سبباً ثالثاً لبروز تلك الظاهرة في قصائد المديح عند الزبيري : " إن كانت كذلك " (50)، على حد تقييم المقالح لها. وتأسيساً على مامر ذكره تصبح قصيدة المديح عند الزبيري ـ طبقاً لرؤية المقالح ـ مما يدعم القول بذكاء الزبيري السياسي الذي يحيل الكلمة والشعر سلاحاً يقارع به ذلك النظام .
في قناعة عنده ، يؤكدها ما نقله المقالح عنه ، حين قال : " وإذا كانت الحرب خدعة فالشعر أحياناً سلاح من أسلحة الحرب"(51) .

ويختم المقالح تبرير هذه المسألة بسبب رابع يجده في البعد الذاتي والثقافي الذي تواصل الزبيري من خلاله مع واقعه وما ينضحه من قيم فكرية وأدبية ، فالزبيري نتاج مرحلة لها سماتها الشعرية التي تتضخ عنده ـ كما هي عند سواه ـ ومن هنا كان لابد لتجربته أن تستجيب لمؤثرات البيئة ولتقاليدها الأدبية التي كان شعر المديح فيها ـ محلياً وعربياً ـ قيمة فنية لا يمكن لأي شاعر حينها أن يتفلت من تداولها أو إيجاد مثالها في شعره ولم يكن الزبيري استثناء في تلك المرحلة التي : " كان الشعر فيها ما يزال ـ إلى حد ما ـ هو المدح ، وكان المدح هو الشعر ، ليس في اليمن وحدها بل في سائر الأقطار العربية"[52].

وبعد أن ينتهي المقالح من تثبيت تلك المبررات التي أخذت شاعرية الزبيري نحو قصيدة المديح ، داعماً ذلك كله باستشهادات نصية من أقوال الزبيري ونصوصه الشعرية ، ينتقل بالقول إلى تأشير المراحل التي مرت بها هذه التجربة عند الزبيري ، حتى انتهى به الأمر إلى نبذها من فكره وتجربته. فإذا كانت بداية توجهه إلى النظم بهذا الغرض مؤسسة على منطلقات رؤية تجعل من شعر المدح وسيلة لغاية وطنية نبيلة فإن ما شهدته المرحلة اللاحقة ، مثلت حالة من الإحباط وانهيار الأمل باستدراج الممدوح إلى حيث الغايات المنتظرة. لتأتي بعدها مرحلة الإحساس بالندم على هذا الذي فعله الزبيري بشاعريته ، حين ألقى بها عند من لا يستحقها. ليصل الزبيري ـ وكنهاية متوقعة لتلك المشاعر التي كابدها ـ إلى المرحلة التي وسمها المقالح بأنها مرحلة (النقد الانتقامي)[53] التي لم تقف به عند مواجهة قصائده تلك ووصفها بـ (الوثنيات)[54]، بل إلى الانتقال بوجوده كله إلى أفق جديد أسماه (مرحلة اليقين الثوري)، ليجد رؤيته الشعرية الحقيقية والمكتملة ، وليصبح مفهوم الشعر عنده مرادفاً لمفهوم الثورة [55].

ويختم المقالح تلك المحاجة المكتنزة ليقينها عن تجربة المديح عند الزبيري بالالتفات إلى الجانب الجمالي فيها ، فيرى أن تلك القصائد كانت : " عملاً فريداً في الشعر" [56]، كما لاحظ عليها غياب المفردات المعتادة في المديح ، ليحل محلها عنده ألفاظ مثل : الشعب ، الوطن ، التاريخ ، المجد ، الإسلام ، العروبة ، الحرية ، العدل ، الحق...[57]

لقد نالت مدائح الزبيري الشعرية للإماميين حصة بارزة من الانشغال النقدي ، ليس عند البردوني والمقالح وحدهما بل في معظم الدراسات التي تناولت تجربة الزبيري الشعرية. وقبل ذلك من الزبيري نفسه الذي بذلك جهداً متميزاً في تبريرها ودرء ما يمكن أن يناله بسببها.

وبغض النظر عما يمكن أن نصل إليه من تصورات عن تلك القصائد ، وسواء أكانت مديحاً لغاية المديح التي لا يمكن تصور الزبيري في الساعين إليها ، أو أنها جاءت لغايات أخرى تجعلها ـ طبقاً لرأي المقالح ـ بمثابة :" لون رمزي من ألوان الهجاء " [58]، فإنها ـ بحسب قناعتنا المؤكدة ـ " تتصل بمرحلة سياسية لها ظروفها ومحفزات حركيتها ، وما فرضته على الزبيري وسواه من مناضلي اليمن من خيارات محدودة للتعبير عن مواقفهم" [59].

ولعل الجانب الفني في هذه القصائد مما لا يمكن التغاضي عنه، إذ : " إن قصائد المديح تلك ـ وحين يتم وضعها في المساق الفني لتطور تجربة الزبيري ـ ستبرزه شاعراً متمكناً من أدوات فنه الشعري ، وذا نفس إبداعي خلاق ، يعيد لقصيدة المديح رونقها وهي تخرج عنده من غايات ضيقة إلى ما هو أكثر نبلاً" [60].

(4)

لا يمكن استنباط رؤية البردوني عن (المذهبية الفنية) التي تحرك في أفيائها شعر الزبيري إلا من خلال استدراج ما قاله في كتابة (رحلة في الشعر اليمني...) وموائمته مع كتابة الأخير (من أول قصيدة...) لتكتمل أبعاد تلك الرؤية وتتأكد طبيعة القناعات التي ترسخت لدى البردوني عن هذه المسألة.

ولا بد من التأكيد في البدء أن البردوني يجد الشعر أكبر من أن يحكم بمذهبية محددة أو أن يوجه مفهومه وحركيته من خلالها : " لأن السر الشعري الكامن في بديعياته سبق المدارس والمذاهب التعريفية والتصنيفية وتجاوزها بعد تكاثرها وتلاحقها ، ولأن الشعر هو الذي يخلق المدرسة ، وليست المدرسة هي التي تخلق الشعر" [61]، ويلحق بذلك عنده : " أن المدارس متعاونة مختلطة وليس هناك سور صيني بين هذه وتلك لأن كل المدارس وجهة عامة "[62].

وربما عد البردوني شعر الزبيري من الأمثلة المؤيدة لرؤيته هذه ، إذ هو يخرج عن أن يؤطر باتجاه مذهبي بعينه ، حيث تلتقي عنده أكثر من مدرسة ، لا لتعلن عن حصتها منعزلة عن سواها من المدارس بل لتتواشج معها مخبرة عن حضورها في هذا النص أو ذاك ، تاركة لسواها أن تعلن عن نفسها في آخر سواه[63]، وهو ما جعل الزبيري ـ طبقاً لقناعة البردوني : " أثقف مجايلية شعرياً" [64]، لأنه يجمع في تجربته أكثر من اتجاه جديد وآخر قديم موورث. وهو وإن سعى إلى التجديد في شعره : " فقد جدد لكن على الأساس القديم ، فلم يشذ عن القديم كل الشذوذ ، ولا تقيد به كلياً "[65]، وهو ما جعله بحسب ذلك أقرب إلى مفهوم (الكلاسيكية الجديدة) مع العودة إلى ما قبلها.

وعبر هذه الرؤية فقد رصد البردوني تعالقات شعر الزبيري و(تناصه) مع أكثر من شاعر قديم : كالمتنبي والبحتري ، وأكثر من شاعر حديث كأحمد شوقي وعلي الجازم وحافظ إبراهيم ، في الوقت ذاته وفي نصوص ربما انتمت إلى المرحلة الواحدة من تجربته[66].

وهكذا تأطرت الحدود المذهبية لشعر الزبيري ، ولم يغادرها ـ على ما رآه البردوني ـ إلى أبعد منها ، فعنده أن القول باقتراب الزبيري من الرومانسية أمر مستبعد : " إذ لا يمكن إطلاق الرومانسية على الزبيري... لسبب واحد، هو: غياب مقومات الرومانسية التي تقوم على أربعة مبادئ ، الأول: تمجيد الألم، والثاني الصدور عن قراره ذات الشاعر ، والثالث التلاشي في الطبيعة ، والرابع الانصهار في الحزن واستنطاق مشاهده في الإنسان والحيوان والنبات والمعنويات" [67] . ومن هنا فإن القول بأن الزبيري قد أصبح رومانسياً في يوم ما ، أو أن قصائد بعينها ذهبت به إلى هذا الاتجاه أمر لا يقره البردوني ، فحتى قصيدتيه (البلبل)

و(حنين الطائر) اللتين أجمع الكثير من الدارسين على بروز فاعلية التمثل الرومانسي الذي سلكه الزبيري فيها ، مما يعارضه البردوني : " لأن هاتين القصديتين وسواهما من المقطوعات لا تمثل اتجاهاً رومانسياً ، وذلك لأن الكلاسيكية أقرب إلى نفس الزبيري لقوة دلالتها على الأصالة من الناحية الفنية ، ولأنها تتطلب الموضوع في خارج الذات "[68].

وإذ حسم البردوني الأمر في هذه المسألة كما تم له أن يعتقد ، لم يغب عن رؤيته ما أحدثه الزبيري في تطور نوعي مهم في مسار الشعرية اليمنية ، وذلك ما ذهب بالبردوني إلى القول : " إن الزبيري أوجد مدرسة يمنية معاصرة تضرب جذورها في القديم وتمتد فروعها في جو جديد ، لهذا أحدث الزبيري حماساً شعرياً نشأ في ظله شباب تأثروا به "[69] ، ولكن هذه المدرسة لم يتح لها أن تواصل عطاءها المتطور فأصبحت بلا تلاميذ : " ولم يعد الزبيري إلا شاعراً مجيداً مناضلاً ، أما مدرسته شعرياً فقد انتهت لبزوغ مدارس جديدة "[70].

لعله من الضروري أن نبدأ برصد التجليات المذهبية لشعر الزبيري كما رصدها المقالح من منطلق تحديد مفهوم الشعر وطبيعته ومصدريته ولكن هذه المرة كما تأمله الزبيري وأعلنه ، وليس كما يتمثله المقالح ، مثلما حصل مع البردوني آنفاً.

فعند المقالح أن الزبيري رفض الحديث المكرور في التراث الإنساني عن مصادر غيبية خارج ذات الشاعر، فالزبيري : " لا يقبل بما ينقله هذا الموروث أو ذاك عن مصدر الشاعرية ، وهو يرى أن الشعر نبت الأفكار ، وللبرهنة على ذلك يسوق أكثر من دليل "[71] .

وحين يرصد المقالح غاية الشعر عند الزبيري فإن يجزم بأنها لا تكون : " إلا صوت الوطن وضمير الشعب ، وما نغماته إلا الزئير الذي يسبق العاصفة - الثورة "[72].

ولتحديد التوجه المذهبي الذي سلكه شعر الزبيري ، يرى المقالح أنه منتم تماماً إلى (الكلاسيكية الجديدة)، بل هو رائدها في الشعر اليمني الحديث والكلاسيكية الجديدة - طبقاً لتعريف المقالح : " ليست تقليداً خالصاً لمن سبق من الكتاب والشعراء ، وليست إبداعاً خالصاً ، وإنما هي تجمع بين الإبداع والتقليد "[73]، غير أن الزبيري قد صنع لهذا المذهب الفني في مواقفه وتجربته الشعرية ما يراه المقالح ميزة له وحده ، إذ : " نستطيع أن نقول إن الترابط النضالي بين الشاعر الكلاسيكي الجديد في اليمن وبين الثورة قد مثله الزبيري أصدق تمثيل "[74].

ولكن شعر الزبيري لم يعتكف على هذا الاتجاه المذهبي فقط : " فقد تفلت من قبضة الكلاسيكية الجديدة فترة من حياته ، ربما كانت الفترة التي أعقبت سقوط انقلاب 1948م ، وما تلاها من شعور بالإحباط وإحساس بالضياع . وقد كتب في هذه المرحلة قصيدتين رومانسيتي المنزع كانتا - وما تزالان - تمثلان طليعة الشعر الرومانسي في اليمن "[75].

يشارك المقالح البردوني رأيه فيما يمثله الزبيري من مدرسة واضحة السمات والتوجهات في الشعرية

اليمنية. وهذه المدرسة لم تشهد توقفاً أو انقطاعاً

ـ كما كان البردوني قد أخبر عنها ـ بل هي دالة على استمرارها ـ عند المقالح ـ من خلال : " أن كثيراً من الكلاسيكيين الجدد ـ ممن جاءوا بعد الزبيري ـ كانوا نسخاً مكررة منه في النهج الشعري ، وإن أضيف إلى إنتاج البعض منهم قدر من الجودة ، يفرضها تطور الزمن وتجدد الأساليب الشعرية بما فيها أسلوب الكلاسيكية الجديدة " (76).

ولعل في العبارة أعلاه ما يشير إلى التجربة الشعرية للبردوني نفسه الذي عده المقالح امتداداً لمدرسة الزبيري وتواصلاً متنامياً لها فقد : " تأثر البردوني في حياته الشعرية بمواقف الرائد الزبيري وسار على دربه خطوة خطوة " (77) .

إن ما يعن لنا تأشيره هنا ، وفي مسألة التأثر بالزبيري هو أن كلا الشاعرين ـ البردوني والمقالح ـ قد تأثر به وسار على هدي من مواقفه ومنجزه ، وانتمى إلى مدرسته ، ولكن في أقدار من التأثر والاستجابة ليست واحدة ، فإذا كان البردوني في شاعريته امتداداً فنياً لمنجز الزبيري فلعل المقالح يمثل حالة مع التواصل مع الزبيري ، ولكن في آفاق ليس الشعر هو ما يشغلها وحده ، إذ لا يمكن الحديث عن تلمذة فنية (شعرية) للمقالح نتلمس للزبيري حضوراً فيها ، لطبيعة الانشغالات الرؤيوية والجمالية المغايرة التي اختطها المقالح لشاعريته ، وهي تذهب إلى تمثل قيم الحداثة وإبراز مثالها الحصيف.

ولكننا قادرين على تأشير بعض السمات التي تعلن عن تلمذة ثقافية وروحية خاصة بالمقالح ، لعله استمد بعض مقوماتها من تأمله الطويل لذلك الخصب الإنساني والثقافي والروحي الذي كانت عليه شخصية الزبيري ، وبما يرسخ نزوعاً بيناً نحو توجهات صوفية لها طابعها الخاص ، تبناها الاثنان ، واستبدت بوجودهما الإنساني في كثر من التعاملات والمواقف . وكان ذلك قد استوقف المقالح فأشر سماته في مناحي كثيرة لدى الزبيري (78).

(5)

تبدت في الموقف الذي عبر الزبيري من خلاله عن وجود المرأة في شعره سمات لتلك الجدلية المتواترة نقدياً بين البردوني والمقالح ، وهي مسألة نجد من الضروري الوقوف عندها وإن بحدود موجزة.

لقد كانت مفردة (الهيام) التي سبقت الإشارة إلى حديث البردوني عنها بمثابة فرصة للبردوني كي يعلن أن الزبيري ربما كان قد عشق أحداهن في مرحلة وجوده بتعز قريباً من ولي العهد أحمد : " وهذا ممكن لأن الزبيري كان شاباً نضيراً إذاك " (79) . ومن خلال هذا الظن ذهب البردوني ليشير إلى مساحة (التناص) الشعورية والشعرية التي يمكن أن تجمع بين الزبيري والمتنبي الذي خلع هيامه بـ (خولة) على أخيها (سيف الدولة)، ليصنع الزبيري الأمر ذاته وهو يورد مفردة (الهيام) في مدائحه للأمير ولي العهد التي وشت بعواطفه : " وهذا مجرد افتراض فرضه استبطان النصوص التي انطوت على الهيام في كل القصائد التعزية ،

وما تلاها بأعوام بشكل أقل. وهذا التذكر لذلك الوجه الذي أسفر حيناً من الزمن. ولا يمكن أن يكون الأمير أحمد مناط الهيام وتذكره "[80].

يذهب المقالح ليؤكد جازماً القول أن الزبيري :" لم يقترب من المرأة الحبيبة أو سواها ، حتى وإن كانت : " المرأة الرمز ، حيث تتعانق المرأة والوطن" [81]. وهكذا فعنده أن الزبيري قد " أدار ظهره للمرأة ، لا بوصفه شاعراً كلاسيكياً أو رومانسياً بل باعتباره شاعر الوطن "[82]، ويعد المقالح هذا النأي عن استحضار صورة المرأة في القصيدة مما يعترض على الزبيري فيه، وإن وجدت مبرراته فيما تهيأ له من ظروف نشأة وتربية صوفية ، لأن :" الحديث عن المرأة الحبيبة، أو المرأة الرمز يمنح لعناصر الطبيعة معنى خاصاً ويجعل للوطن في النفس تأثيراً مميزاً"[83]. ولكن ذلك لم يقع للزبيري المنشغل بتصوير المعاناة مختلفة الأوجه التي يكابدها شعبه. ويستدرك المقالح ما سبق بقوله إن انعدام حضور المرأة في شعر الزبيري لم تكن حالة لتخصه وحده : " فإن المرأة ظلت غائبة تقريباً عن التجربة الشعرية المعاصرة في اليمن ، ربما لغياب دورها في مسرح الحياة الاجتماعية ، فهي حبيسة المنزل ، لا تشارك الرجل معاناته النضالية والحضارية... لذلك فإن افتعال القول الحديث عن المرأة في الشعر، والتمثل لدورها ، حتى لو كان دوراً رمزياً ،لأن الرمز لا بد أن ينبع في البداية من الواقع "[84].

(6)

تبرز في كتابي البردوني والمقالح عن الزبيري استيقافات لرؤية معينة تخص كل منهما على حدة ، وتمثل مساحة للتأمل المنشد في منجزه إلى حيث يستجيب للرؤية المهيمنة التي نظن أن كلاً منهما قد انطلق منها وتمسك بمنطوقها فيما قدمه من قراءة خاصة به لتجربة الزبيري الشعرية . ومن أجل هذه القناعة فقد عنّ لنا أن نستجلي تلك الاستيقافات ونبرز طبيعة تشكلها عند كلا الشاعرين الناقدين.

لقد سبق لنا القول بتعدد فصول كتاب البردوني (من أول قصيدة إلى آخر طلقة) وتنوع انشغالاتها بين ما هو مضموني وآخر جمالي فني . وقد لفت انتباهنا كما غيرنا ـ تعدد الفصول التي محضها البردوني لدراسة الجانب الفني في مجال الصورة وتشكيل عنصر الخيال وفاعلية اللون في إنجاز أبعاد تصويرية دالة في كثير من قصائد الزبيري . لقد بدا هذا الجانب عند البردوني ذا مسعى تشخيصي يتأسس على تعاملات حسية مدركة لا يمتلكها البردوني بفعل فقدانه للبصر ، ولكنه سعى إلى تجاوز هذه العاهة واستدراج مقدراته الذهنية ، لتذهب بعيداً في تأمل الصورة بأبعادها التشكيلية المتعددة ، ومنها البعد اللوني ، وبما يتمثل ذلك النزوع الذاتي الذي نجد فاعليته وقد اندست بعيداً في تأملات البردوني لتأكيد مقدراته الشخصية بنزوع ربما يوازي ـ أو يتفوق ـ على رغبته في تأمل شعر الزبيري والكتابة عنه.

خص البردوني هذا الجانب الفني بخمسة فصول هي الثالث : الصورة الفنية، والرابع : تحول صورة الوطن ، والخامس : الصور الطويلة، والسابع : التخييل والتخيل، والثامن: مخيلة الصورة اللونية.[85]

وعلى الرغم من قصر تلك الفصول ، حيث لم يتجاوز أطولها أربعة عشرة صفحة فإنها وفي مجموعها تعكس جهداً تأملياً طيباً ، قدمه البردوني عن شعر الزبيري ودلالات تلك القيم في تشكيل البعد التصويري عنده . ولكن البردوني ، وكما هي عادته يطيل المقدمات ، ويذهب بعيداً في الاسترسال التنظيري والتمثيل لها بما هو خارج شعر الزبيري .

ومن بين تلك الفصول الفنية فلعل الفصل الثامن (مخيلة الصورة اللونية) هو من أبرز ما قدم البردوني ، وذلك ما يجعلنا نطيل الوقوف عنده .

لقد استهل البردوني هذا الفصل بالقول إن الألوان : الأخضر والأبيض والأحمر والأسود ، والأزرق ، والأخضر ، وهي : " الألوان الستة الشائعة استعمالاً. أسباب امتلاك الفن القولي ، لأن هذه الألوان ترمز إلى حالات في نفس القائل ، كما تدل على مكامن الإثارة ومواطن الإعجاب في القول"[(86)] .

ولا شك في أن البردوني هنا يقوم بنقل الحديث عن اللون من واقع تشكيله البصري ليضعه في سياق من التأمل لوجوده في (فن القول) أي الشعر ، وذلك يعني أن مناقلة ذهنية معينة هي التي تعايش فكرة حضور اللون في تصورات البردوني له ، ليصبح القول هو مثار تلقي اللون واستحضاره بهيئة ذهنية وليس من خلال تحسسه عياناً وذلك ما سيدعمه البردوني بلاحق من القول يؤشر فيه طبيعة التلقي الصوتي للون : " من هنا أمكن تصور لون الصوت ، فإذا كان غاضباً وصفوه بالجمود، وإذا كان حزيناً وصفوه بالبنفسجية أو بالزرقة، لأن الألوان في التعامل الفني من حدس المخيلة لا من واقع اللون وحده "[(87)] .

وربما عنّ لنا أن نذهب إلى الظن بأن هذه التصورات مؤسسة على تأملات تخص البردوني أكثر من كونها استقراءً منهجياً مؤكداً ، إذ لم نقع عنده على المصدر الإحصائي الذي استقى منه قوله الأول عن شيوع تلك الألوان الستة في الفن القولي ، مثلما لم نتبين التثبيت الموثق عن أولئك الذين محضوا الصوت تلك الدلالات الذهنية ، حيث التداول اللوني عند الأمم والشعوب إنما يخضع لمؤثرات بيئية وظروف معيشة وقيم وجود اجتماعي تتدخل كلها في تشكيل الحساسية اللونية وترسيخ دلالاتها .

حين يدلف البردوني إلى تأشير قيم اللون في شعر الزبيري فإنه يؤكد أولاً أنه من مبدعي الصورة اللونية البارزين في الشعر اليمني ، ليعزو ذلك إلى عاملين اثنين، الأول : كون الزبيري يمنياً ، حيث : " الحنين الإنساني في اليمن إلى الاخضرار والازهرار والأمطار لأنها علامة الموسم السخي " [(88)] . أما السبب الأخر فلا يكاد يبتعد في مصدريته عن الأول ، ولكنه متصل بتحديد البيئة المكانية التي عايشها الزبيري ، فعند البردوني أن : " حاسة الزبيري الصنعانية أميل إلى المشاهد البهيجة تخيلاً وواقعاً"[(89)] .

ومع أهمية المؤثرات البيئية والطبيعية التي يشير البردوني إليها فإنه ومن خلال الاقتصار عليها وحدها إنما يجعل تعامل الزبيري مع اللون في شعره نتاج مؤثر خارجي ، متجاهلاً الجانب الذاتي المتعلق بالثقافة اللونية والذائقة الشخصية التي لا شك في أن لها فعلها في تشخيص جانب من توجهات الزبيري الفنية الخاصة ،

وإلا فإن العاملين اللذين ذكرهما البردوني أعلاه هما مما يشترك به الزبيري مع سواه من الشعراء اليمنيين، فكيف تهيأ له وحده أن يكون من مبدعي الصورة اللونية كما وصفه البردوني نفسه ؟ .

لقد تأمل البردوني بعين من الوعي الجمالي المستحضر طبيعة اللون وآفاق تشخصه وتمثلاته الذوقية عند الزبيري ، ما دل على جانب في إمكانات البردوني العالية ـ وهو البصير ـ على إدراك حساسية اللون وحركيته الشعورية.

وإذا كانت بعض ملاحظاته ذات طبيعة ذهنية في تلمس اللون وتوصيفه فإن هناك بعض الإشارات التي تؤكد مقدرة البردوني على استعادة عدد من الألوان وتذكرها ، لا سيما حين يشير إلى درجاتها وتداخلها في الترسم التصويري ، وهو ما يؤسس للانطباع أن البردوني يعرف هذه الألوان ويميزها ، من خلال استعادته لمضمونها اللوني منذ سنوات الطفولة التي كان فيها مبصراً ، وهو ما لا يؤيد القول المتواتر لدى البردوني ـ وكذلك بعض دارسي شعره ـ من أنه فقد البصر قبل السادسة ـ بين الرابعة والخامسة ـ[90]، حيث أكدت كثير من الدراسات المهتمة بسايكولوجية الطفل ومقدرته الإدراكية أنه يبدأ بالتميز المدرك للألوان عند بلوغه السادسة أو قريباً منها[91]. وهو ما يفضي بنا إلى الظن بأن البردوني فقد بصره عند تلك السنة السادسة أو ربما بعدها[92].

تفرد المقالح وفي أكثر من صفحة في كتابة (الزبيري ضمير اليمن الثقافي والوطني) بالإعلان الحميم عن تأملاته الخاصة لشخصية الزبيري والجانب الروحي الذي شد المقالح إليه ، إلى جانب إعجابه بشعره واهتمامه بتأمله ودراسته . ولكن المقالح بدا أكثر انهماكاً بإبراز مساحة التعالق الإنساني التي تحسسها ـ ومنذ وقت مبكر ـ بهذه الشخصية النبيلة، ليورد أكثر من واقعة دالة على ذلك ومنذ وقت مبكر .

فمنذ السادسة عشرة وجدت قصائد الزبيري حضورها في شخصية المقالح وفي تأملاته الأدبية الغضة التي صنعت في نفسه الرغبة لأن يكتب ـ وفي العام 1955م ـ مقالاً مطولاً، جعل عنوانه (الزبيري ضمير اليمن الوطني والثقافي)[93] وهو العنوان ذاته الذي سوف يختاره المقالح ـ وبعد ما يقارب الربع قرن من السنين ـ عنواناً لكتابه الذي بين أيدينا ، في تأكيد لا يماري عن حالة الانشداد الكبير إلى الزبيري وتحوله إلى قيمة إنسانية ونضالية ـ وشعرية أيضاً ـ يطيل المقالح وقوفه المتأمل لها.

لقد أصبح ذلك المقال المبكر مساحة من الاستعادة والتواصل الدائم مع هذا الوجود الباذخ للزبيري في رؤية المقالح وانشغالاته ، بل لعل المقال ذاته قد استحال معادلاً موضوعياً للصلة الروحية والثقافية والوطنية التي يحملها المقالح عن الزبيري ، فهو ينمو وتزداد صفحاته كلما أمعن المقالح في تعميق تلك الصلات مع شخصية الزبيري وأدبه ، حتى تم له أن يلاقيه عياناً، ليصبح ذلك الانشداد يقيناً أكثر عمقاً وإعلاناً عن مكنوناته .

لقد التقى المقالح الزبيري بعد ثلاثة أعوام من كتابته لتلك المقالة ، وتحديداً في العام 1958م ، حين أتيح له أن يروز القاهرة التي كان الزبيري مقيماً فيها :

" في القاهرة رأيته ، رأيت الزبيري الإنسان ، وليس الزبيري القصيدة... وقد أضاف هذا اللقاء غير المنتظر وغير المتوقع أبعاداً جديدة إلى نفسي عن شخصية الزبيري الشاعر والمناضل ... وكتبت قصة اللقاء بحروف تتوهج بمحبة لم أشعر بها نحو إنسان كما شعرت بها نحو هذا القائد ، الشاعر، المتواضع ، هذا الشيخ الذي يحتفظ ببراءة الأطفال وصدق الأنبياء "[94] .

ويستعيد المقالح في صفحات أخرى من كتابه هذا تلك اللقاءات المختلفة والمتباعدة مع الزبيري ، ومنها لقاؤه معه في القاهرة عام 1964م ، حيث تحلق كثير من الشباب اليمني حول الزبيري ، رمز وطنه والقائد البارز في مسيرته ، ليصغوا إليه وهو يستذكر مسيرة النضال الوطني وما جابهه الثوار من مكابدات وتشريد وقتل ، ذلك كله يستعيده المقالح باستفاضة مشدودة إلى صوت الزبيري وملامحه وانفعالاته ، حيث راح هو والآخرون الذين معه يتحلقون حول الزبيري : " كما يتحلق التلاميذ من حول أستاذهم الحبيب "[95].

- **خاتمة... متحقق القراءة وكشوفاتها**:

مثّل الزبيري ـ شخصاً وشاعرية ـ قضية خلافية يمكن تلمسها في معظم كتابات البردوني والمقالح عنه ، فلقد تناولاه في مساحة من التجاذب الحواري المتجادل والمختلف في كثير من الأفكار والقراءات ، وهو ما قمنا برصد بعض تكشفاته في كتابيهما اللذين توقفت عندهما قراءتنا هذه.

لقد شغلا بتأمل مواقف الزبيري في وجوده الإنساني والإبداعي، وتلمسا مواطن شاخصة في تلك المسيرة النبيلة، فأبدى كل منهما ملاحظاته عنها، وعلى نحو يوحي بالتباين ومناقضة الآخر فيما يذهب إليه [96] :

ولعل في هذا التجاذب بين البردوني والمقالح ما يؤشر حالة من المعافاة في الدرس النقدي يؤسس لها هذان الشاعران الكبيران والناقدان الحصيفان، إذ لا يمكن تتصور أن كلاً من البردوني والمقالح ـ على مالهما من رؤى متميزة وانشغالات خاصة ـ يتطابقان في تأمل (الزبيري /الظاهرة) ويتفقان على تفصيلات وجودها المتسعة، وهما يحملان قيم رؤية وأبعاد تأمل ذهني وذائقة استقراء لها مؤهلاتها المتفردة التي تصنع وعيها المغاير لما هي عليه عند الآخر.

في العام 1979م صدرت الطبعة الأولى من كتاب المقالح (الزبيري ضمير اليمن الثقافي والوطني) ، في حين تأخر صدور كتاب البردوني (من أول قصيدة إلى آخر طلقة) حتى العام 1993م . أي أن كتاب المقالح قد سبق في صدوره كتاب البردوني بما يقارب الأربعة عشر عاماً، ومع ذلك فقد بدا أن في الكتابين حواراً معرفياً جديراً بالتأمل ، يتواصل بين الشاعرين الكبيرين وإن لم يشر أحدهما إلى الآخر بالاسم صراحة .

وربما سيبدو غريباً أن كثيراً من ملاحظات المقالح وتأملاته الناقدة هي بمثابة ردود على البردوني المتأخر عنه في إصدار كتابه . غير أن الأمر يصبح طبيعياً حين نتذكر أن للبردوني كتاباً آخر ـ أسبق في صدوره من كتاب المقالح ـ وهو: رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه الصادر في العام 1973م ، كان قد تضمن أكثر من

مبحث عن الزبيري ، وفيها قدم البردوني جملة من الأفكار والقناعات التي أعاد الحديث عنها في كتابه الأخير. وهذا الأمر دفعنا - في قراءتنا هذه - إلى تداول كتابي البردوني القديم والجديد في الآن نفسه ، مع أن ما بينهما يتجاوز الربع قرن من الزمان ، لأننا نعتقد أن ما جاء في الكتاب الأول قد تحول إلى قناعة راسخة لدى البردوني، راح ينافح عنها في كتابه الأخير ، ولا سيما بعد أن تأمل ردود الأدباء والدارسين على طروحاته في ذلك الكتاب المتقدم . ولا شك في أن المقالح من بينهم .

إن قراءة مستفيضة لمحتوى الكتابين ستفضي بنا إلى تأكيد القول بتوزع قراءتي البردوني والمقالح لتجربة الزبيري على مختلف أبعادها ، لتطيل الوقوف عند أفقين لا يمكن لأية قراءة أن تتجاوزها في استقراء الوجود الفاعل لهذه الشخصية اليمنية الفذة في مواقفها ، عبر الاستجلاء الدائب للبعدين (السياسي/الشاعر) سعياً لاستنطاق قيم تشخصهما عنده ، والكيفيات التي تعاورا فيها وجوده بكل مناحيه.

لقد تعاضدت القراءتان في الاتفاق على جملة مشخصات بارزة التشكل عند الزبيري، مثل :

- مكانته راسخة الحضور في الواقع السياسي والأدبي اليمني الحديث.
- الدور البارز في توطيد قيم الشعر الوطني والسياسي.
- تعدد أوجه حضوره مناضلاً ومبدعاً صادق التعبير عما يعايشه.
- رسوخ وجوده - ولا سيما بعد استشهاده - شخصية ذات دور تاريخي لا يجارى في بلاده حاضراً ومستقبلاً.
- تداخل الأبعاد الحياتية والإبداعية وتزاحم وقائعها وبما يؤهل وجوده الإنساني والأدبي ليصبح بعداً سجالياً متواصلاً.
- وجود أكثر من مهمينة ومنطلق رؤية يستطيع الدارس أن يدلف إليها ، ليجد بغيته الفكرية والجمالية التي تمكنه من تأسيس رؤية قرائية خاصة به.

ومن خلال هذه المنطلقات وسواها فقد ذهب كل من البردوني والمقالح لاستنطاق رؤيته وتمثلاته القرائية التي يجد مستندات توثيقها في حياة الزبيري وشعره ، ليتحول الزبيري عندها إلى مرآة فكرية وجمالية يمكن لكل منهما أن يقول من خلال الإنصات لكشوفاتها النوعية ما يعكس كثيراً مما يفكر به أو يريد إيصاله إلى متلقيه ، بوصفه الإصغاء الخاص الذي يجد بغيته في تأمل الزبيري وجوداً ومنجزاً إبداعياً.

لقد بدا لنا أن المنطلقات المعرفية والفكرية، وكذلك الجمالية التي ذهب كل منهما لقراءة الزبيري من خلالها مختلفة ومتباعدة فيما تسعى إلى تلمسه وتأكيده . إذ كانت ذات البردوني المجهزة بما تريد الإعلان عنه من قدرات تمتلكها وتود الإفصاح عنها هي (المهيمنة) المركزية التي انطلق منها لتأمل الزبيري ، حتى ليمكن القول أن تناول تجربته كان وسيلة عند البردوني وليست هي الغاية المنشودة . وعبر ذلك فقد انهمك البردوني بإيراد كل ما يخطر على باله من استعادات قرائية - تاريخية وأدبية - زاحمت تناولاته للزبيري ، وربما ضيقت

عليها ، حد ابتسارها ومحدوديتها . في حين كان يقين المقالح متكيفاً تماماً حول فكرة (مهيمنة) تريد إبراز الحضور الناصع لوجود الزبيري مثقفاً ومناضلاً وطنياً كبيراً . وتأسيساً على هذا التباين في منطلقات كل من القراءتين فقد جاءت قراءة المقالح مكثفة و موجزة و شديدة التركيز، الأمر الذي جعلها لا تتجاوز في عدد صفحاتها المائة والثلاثين صفحة ، في حين استفاض البردوني بإيراد ما يعنّ له كله ، ليتجاوز عدد صفحات دراسته الثلاثمائة والخمسين صفحة.

وكسمة منهجية عند كلا الدارسين فقد كانت اللغة العلمية المركزة والمؤيدة لمقولاتها بالهوامش والتوثيق القرآني هي دأب كتاب المقالح ، في حين لم نلمس مثل ذلك عند البردوني ، فقد كان ينطلق في سجية مستفيضة ، وفي استعادات لا يأبه بتوثيقها ربما أدت به إلى غياب دقة المعلومة - في مسماها وتواريخها - عن بعض إشاراته. ولعل الارتهان إلى ما تفيض به الذاكرة وتستعيده هو الذي كان له تأثيره في الجوانب القرائية الموضوعية، وكذلك في الجوانب الفنية ، حتى بدت صيغة التساؤل وإيراد أدوات الاستفهام على نحو لافت سمة أسلوبية شاخصة الحضور في كتابات البردوني.

لقد عكست القراءتان ثقافة كلا الشاعرين وطبيعة التوجهات الفكرية والتأسيس المنهجي الذي تمكنا منه ، فصار سجية معرفية لكل منهما . فحين كانت استعادات البردوني ومنطلقات رؤيته تكرس وجود ثقافة تراثية يستجلب كثير من قيمها كقناعات منهجية له كانت منطلقات الرؤية التي تنزع نحو قيم الحداثة وكشوفاتها هي الوجهة التي تخيّرها المقالح لكثير من طروحات قراءته للزبيري.

أخيراً فإن ما نود الإشارة إليه هو أن قراءتي المقالح والبردوني مثلتا جهدين من المعرفة والاستنطاق النقدي الحصيف ، وهما - فيما نهضا عليه من أوجه مجادلة وتباين قرائي مثير- قد استحالتا إلى مرتكزين قرائيين انتمت إلى أفق كل منهما مجموعة من الدراسات والقراءات اللاحقة التي كتبها عن الزبيري نقاد وباحثون كثر، فبين من يشارك البردوني مقولاته ويتبناها ، والآخر الذي يجد عند المقالح اليقين المعرفي الذي يكرس قراءته له توزعت أفكار الدارسين وتبوبت دراساتهم وأبحاثهم، حتى صادر بالإمكان الحديث عن (مدرستين) في قراءة تجربة الزبيري ومنجزها، واحدة (بردونية) وأخرى (مقالحية) ، ولكل منهما مريديها والمنادين بكشوفاتها القرائية .

❖❖❖❖❖❖❖

*** هوامش وإحالات:**

(1) نذكر منها الكتب الآتية :

- مع الشهيد الزبيري ،عمر بهاء الدين الأميري ، 1965م.
- الزبيري شاعر اليمن ، عبد الستار الحلوجي ، 1968م.
- منهج الزبيري في الإصلاح والحكم ، عبد الملك الطيب، 1974م.
- الزبيري شاعر الوطنية ، عمر الجاوي ، 1974م
- الزبيري شعره ونثره ، علوي طاهر، 1977م

ـ الزبيري ضمير اليمن الثقافي والوطني ، المقالح ، 1979م..
ـ الزبيري أديب اليمن الثائر ، عبد الرحمن العمران ، 1979م.
ـ الزبيري شاعراً ومناضلاً ، مجموعة كتاب ، 1986م.
ـ شعر الزبيري بين النقد وأوهام التكريم ، رياض القرشي ،1990م.
ـ من أول قصيدة إلى آخر طلقة ، البراوني ، 1993م.

(2) د.عبد العزيز المقالح ، مقدمة ديوان الزبيري ، دار العودة، بيروت 1978 م ، 2 : 9 .

(3) صدرت الطبعة الأولى من كتاب البردوني في العام 1993م، في حين صدرت الطبعة الأولى من كتاب المقالح في العام 1979م .

(4) ينظر:
ـ د. منيف موسى، نظرية الشعر عند الشعراء النقاد في الأدب العربي الحديث، بيروت، 1984م.
ـ د. عبد الجبار المطلبي، الشعراء نقاداً، دراسات في الأدب الإسلامي والأموي، بغداد، 1986م.
ـ د. هند حسين طه، الشعراء ونقد الشعر، بغداد 1986م.
ـ د. علي حداد ، الخطاب الآخر، أبجدية الشاعر ناقداً ، دمشق 2000م.

(5) هذا الكتاب في أصله رسالة علميه نال بها المقالح درجة الماجستير من جامعة القاهرة في العام 1973م .

(6) لا تكاد كتب البردوني التي اهتمت بالثقافة والأدب اليمني لتخلو من فصل أو مبحث عن الزبيري . ينظر مثلاً كتبه : قضايا يمنية ، الثقافة والثورة في اليمن ، اليمن الجمهوري . كما لم يتوقف البردوني عن تناول شعر الزبيري في كثير من مقالاته المنشورة في الصحف.

ولم يكن المقالح بعيداً عن ذلك ، فقد درس جوانب من فكر الزبيري وأدبه في كتبه : أوليات النقد الأدبي في اليمن ، من الأنين إلى الثورة . كما كتب مقدمتين لديوان الزبيري الصادر بجزأيه عن دار العودة ، .

(7) د. حيدر محمود غيلان ، البردوني ناقداً، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء، 2004، ص 46.

(8) المقالح، الزبيري ضمير اليمن الثقافي والوطني، ص11.

(9) المصدر نفسه.

(10) المصدر نفسه ، ص 8 .

(11) نشرت في 1990/5/2م، وقد وردت في الكتاب لتكون الفصل الخامس منه.

(12) غيلان، ص116. وهذه الأفكار للبردوني نفسه وقد أوردها في مقدمة كتابه (قضايا يمنية) ص6 ـ 7 .

(13) ينظر: البردوني من أول قصيدة إلى آخر طلقة ، حيث يمكن التثبت من ذلك عبر مراجعة أي فصل من فصول هذا الكتاب ، فقد تكوّن الفصل الخامس (الصورة الطويلة) مثلاً من صفحات سبع ، ذهبت خمس منها في الحديث عن مفهوم الصورة في التراث النقدي العربي من الجاحظ وحتى ابن خلدون ، ثم الانتقال إلى أمثلة لها

عند القدامى والمحدثين من الشعراء. أما حصة الصورة عند الزبيري فلم يتجاوز الصفحتين ! . وضم الفصل التاسع (الذاتية والموضوعية) صفحتين فقط عن هذه المسألة في شعر الزبيري.

(14) يدرك البردوني هذه السمة في كتاباته ، فيبررها بقوله:

" هذا يرجع إلى أكثر من سبب، منها فلسفتي في المقالة... فعندي أن المقالة الحقيقية هي ما تشكل نواة كتاب أو مشروع كتاب، وكل ما يكتبها هو المزيد من التفاصيل على أساسها ، والإكثار من بسط الإجمال " (قضايا يمنية، ص5).

(15) غيلان، ص117.

(16) يقول البردوني : "هل علمية الكتاب تنبع من أسلوبه وصحة عرضه ورهافة رؤيته، أم ترجع إلى مئات الهوامش ؟ " ، ثم يجيب عن ذلك بقوله : " علمية الكتاب لا تأتي من المراجع وحدها لأن المرجع الخاطئ يجعل تبنيه أكثر خطأ ". وفيما يخص تجربته الكتابية يقول : " أنا عصير قراءات و ثمرات ملاحظة، ولم أتشكل من لاشكل وإنما أنا أوراق أخضرت من أشجار، وتعنقدت من أكثر من كأس، وانبثقت من آثار القراءة والملاحظة... صحيح أني لم أثقل أوراقي بالهوامش ولكني ضمنت الروايات وذكرت المراجع بالاسم في ثنايا البحوث، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فأنا سجلت أحداث عصري على مختلف عقوده، وهذا العصر أنا وأمثالي شهادة ميلاده و سجل وقائعه، فإذا لم أشر إلى مراجع أخرى فلأني وأمثالي مرجع المراجع" (قضايا يمنية، ص11-12).

(17) كان الفصل الأول منه هو المقدمة التي كتبها المقالح لديوان الزبيري الصادر عن دار العودة . وهناك دراسات في الكتاب قدمها المقالح لندوات علمية أو في مؤتمرات أدبية، ينظر: ص43، 89.

(18) ينظر: المقالح، الزبيري ضمير اليمن الثقافي والوطني، ص10، 120.

(19) ينظر: المصدر نفسه ، الصفحات، 89، 99، 106.

(20) البردوني، رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، بيروت، 1978م، ص130.

(21) البردوني، من أول قصيدة...، ص21.

(22) المصدر نفسه، ص22.

(23) المصدر نفسه، ص143.

(24) المصدر نفسه، ص29.

(25) المقالح، الزبيري ضمير اليمن...، ص28.

(26) المصدر نفسه

(27) المصدر نفسه، ص29. وينظر كتاب الزبيري، الخدعة الكبرى، ص58.

(28) المصدر نفسه، ص30.

(29) المصدر نفسه، ص63.

(30) البردوني، أدبنا في عشرين عاماً، مجلة الحكمة اليمانية، العدد الأول، السنة الأولى، أبريل 1971م، ص9.

(31) البردوني، رحلة في الشعر اليمني، ص139.
(32) البردوني، من أول قصيدة...، ص 273.
(33) المصدر نفسه.
(34) المصدر نفسه، ص270.
(35) المصدر نفسه، ص273.
(36) المقالح، الزبيري ضمير اليمن...، ص20.
(37) المصدر نفسه.
(38) المصدر نفسه، ص22.
(39) المصدر نفسه، ص103، وينظر: ديوان الزبيري.
(40) البردوني، رحلة في الشعر اليمني، ص131.
(41) البردوني، قضايا يمنية، ص177.
(42) المصدر نفسه، ص157.
(43) البردوني، من أول قصيدة....، ص187.
(44) المصدر نفسه، ص17.
(45) المصدر نفسه.
(46) الزبيري، الديوان، 1: 84.
(47) المقالح، الزبيري ضمير اليمن...، ص34 . وقد استوقفت البردوني هذه الفكرة فقال متسائلاً : "هل كان يرى الأستاذ الزبيري أن زعماء آل حميد الدين سيتغيرون بالنصح أو يتغيرون بالمديح فيتحولون إلى عظماء وطنيين بمجرد وصفهم بالعظمة والوطنية وحتى الأمل فيهم؟ أظن أن هذا مجرد حلم شاعر" (رحلة في الشعر اليمني، ص131).
(48) المصدر نفسه.
(49) المصدر نفسه.
(50) المصدر نفسه، وينظر مصدره.
(51) المصدر نفسه، ص49.
(52) الزبيري، الديوان، مقدمة المقالح، 2: 11.
(53) المصدر نفسه.
(54) المقالح، الزبيري ضمير اليمن...، ص97.
(55) المصدر نفسه، ص50.
(56) المصدر نفسه، ص51.
(57) المصدر نفسه، ص52.
(58) المصدر نفسه.
(59) علي حداد، عشبة آزال، ص73.
(60) المصدر نفسه.

(61) البردوني، من أول قصيدة...، ص259.

(62) المصدر نفسه، ص260.

(63) المصدر نفسه.

(64) المصدر نفسه، ص258.

(65) المصدر نفسه.

(66) ينظر: المصدر نفسه، ص258-264 . ويقول البردوني أيضاً ص49 : أما الزبيري فكان غير منتم إلى مدرسة، وإنما إلى الجانب التجديدي في الشعر السائد، فشكل امتداداً لشوقي في أكثر قصائده معاصرة ، كما استمد من عصور الفحولة الشعرية فعارض المتنبي... فتكونت للزبيري لغة شعرية هي مزيج من عهد الفحولة ومن العهود النهضوية ومن بواكير المدرسة الرومانتيكية، ومن معجم العصر العباسي.

(67) المصدر نفسه، ص261.

(68) البردوني، رحلة في الشعر اليمني...، ص139.

(69) المصدر نفسه، ص64.

(70) المصدر نفسه، ص134.

(71) المقالح، الزبيري ضمير اليمن...، ص92. وقد استند المقالح في تبيان مفهوم الزبيري على شواهد من شعره .

(72) المصدر نفسه، ص95.

(73) المصدر نفسه، ص24. وقد استعاد الفكرة ذاتها في الصفحة 76.

(74) المصدر نفسه، ص76.

(75) المصدر نفسه، ص25. يشير المقالح هنا إلى قصيدة الزبيري (البلبل) و(حنين الطائر) اللتين تناولهما بالتحليل في الصفحات اللاحقة.

(76) المصدر نفسه.

(77) المقالح، الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن، ص213.

(78) ينظر: المقالح، الزبيري ضمير اليمن، ص16 وما بعدها.

(79) البردوني، من أول قصيدة...، ص17.

(80) المصدر نفسه، وقد استشهد البردوني بأبيات متعددة من شعر الزبيري تدعم رؤيته هذه.

(81) المقالح، الزبيري ضمير اليمن، ص32.

(82) المصدر نفسه.

(83) المصدر نفسه، ص32.

(84) المصدر نفسه، ص33.

(85) ينظر: البردوني، من أول قصيدة...، الصفحات: 45، 57، 71، 108،93.

(86) المصدر نفسه، ص105.

(87) المصدر نفسه، ص106.

(88) المصدر نفسه.

(89) المصدر نفسه، ص109.

(90) ينظر على سبيل التمثيل لا الحصر:

- البردوني، الديوان، بيروت 1979م، ص51.
- هلال ناجي، شعراء اليمن المعاصرون، بيروت، 1966م ، ص74.
- عبدالرحمن عرفان، عبدالله البردوني شاعراً، (رسالة ماجستير مخطوطة) معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1989م.
- د. حيدر غيلان، البردوني ناقداً، ص35.

(91) تؤكد دراسات علم نفس الطفولة على أن الطفل ينشد إلى الصور والرسوم الملونة منذ سن مبكرة (بين الثالثة والخامسة) وتجذب انتباهه الألوان الحارة والصارخة. ولكنه لا يستطيع أن يميز تماماً بين بعض الألوان المتقاربة وكذلك درجاتها اللونية المتعددة -الأحمر ومشتقاته مثلاً- إلا بعد سن السادسة. (ينظر: د. قاسم حسين صالح ، سايكولوجية إدراك اللون والشكل، بغداد، 1982م، ص51 وما بعدها).

(92) يورد المقالح في المقدمة التي كتبها لكتاب البردوني، رحلة في الشعراليمني، ص8، الآتي: " أصيب الشاعرعبد الله البردوني بالعمى وهو في السادسة من عمره".

(93) ينظر: المقالح، الزبيري ضمير اليمن....، ص9.

(94) المصدر نفسه، ص10.

(95) المصدر نفسه، ص121. وبإزاء الذكر المتواتر للقاءات المقالح بالزبيري فقد جلب انتباهنا أن البردوني لم يشر في أي من كتبه إلى أي لقاء جمعه مع الزبيري.

(96) فضلاً عن كثير من القضايا الفكرية والأدبية المتعلقة بالزبيري التي بدت فيها مواقف الشاعرين متباعدة ، فمن الطريف أنهما اختلفا أيضاً حتى في تاريخ ولادة الزبيري ووفاته. فقد قال البردوني أن ولادة الزبيري هي في العام 1917م، وأن استشهاده حصل في الأول من أبريل عام 1965م، ليكرره في أكثر من إشارة وردت في كتابه كقوله:

- " وفي ظهيرة اليوم الأول من أبريل ارتدى دمه الزكي، ولفظ أنفاسه مضرجاً بنجيع الشهادة " (ص29).
- " لقد مات الزبيري في مطلع أبريل 1965م أعظم موت "(ص173).
- أعاد سيرة المعارضة.... حتى استشهاده في يوم 1 أبريل 1965م).

ما المقالح فالراسخ عنده أن الزبيري ولد في العام 1919م واستشهد في 30 مارس1965 م (الزبيري ضمير اليمن....، ص19)